تقرير

إنقاذ «جل البحر» بنقله؟

«نقل التجمّع إلى مكان بعيد عن قبضة البحر فرضته العاصفة الأخيرة»، اقتراح إنقاذ بيوت تجمّع جل البحر عند مدخل صور وجده البعض مشروع تهجير مشابهاً للنهر البارد

صور ـ آمال خليل

قبل أسبوع تماماً، وبعيد العاصفة الأخيرة، وجه رئيس اللجنة الشعبية في تجمع جل البحر، حمد درويش، نداء استغاثة إلى المدير العام للأونروا في لبنان وممثلها في منطقة صور «لرفع الظلم والخطر الذي يهدد التجمّع». وأهاب درويش بهما «لإنقاذنا من الموت المتربص بنا منذ أكثر من ستين عاماً بسبب الأمواج العاتية التي تهدد منازلنا، والرطوبة العالية وعدم وجود شبكة صرف صحي. لذا نناشدكم التدخل السريع، ولا سيما بعد العاصفة التي أدت إلى تدمير منازلنا وتصدعها. ونطالبكم بالإسراع في توفير غطاء قانوني لإعادة ترميم المنازل المتضررة وإعمارها وتدعيم المهدد منها بالانهيار والعمل على الإسهام مادياً بالأمر، ووضع سواتر ترابية لحمايتنا من الأمواج». ويختم درويش محذراً من أنه «إن لم يُعمل على ذلك، فأنتم تتحملون مسؤولية ما قد يحدث».

وإذا كانت اللجنة الشعبية وأهالي التجمع قد طالبوا بحل جذري سريع لتهديد البحر المحاذي لمنازلهم، إلا أنهم لم يحسبوا أن الحل الذي قدمته قبل يومين لجنة الحوار اللبناني ــ الفلسطيني ووكالة الأونروا ومنظمة التحرير الفلسطينية والسفارة الفلسطينية في بيروت، يقضي بنقلهم نهائياً من جانب البحر إلى مكان آخر.

يوضح عضو اللجان الشعبية في مخيمات صور المسؤول عن الملف الاجتماعي، يحيى عكاوي، أن الاقتراح «طرح للمرة الأولى بعيد العاصفة القوية التي ضربت التجمع في مطلع شهر كانون الأول الفائت وأدت إلى تضرر عشرين منزلاً، قبل أن يتعزز إثر العاصفة الأخيرة التي دمرت منزلين وصدّعت أربعة أخرى كانت قد نالت نصيبها من التصدع مرات عدة، آخرها قبل شهرين». ويقضي الاقتراح بأن «توفر الحكومة قطعة أرض وتوفر الأونروا الأموال اللازمة من الدول المانحة». إلا أن عكاوي يستدرك قائلاً إن الأمر «لا يزال في طور البحث، وإن كان قد نال موافقة الأجهزة الرسمية في منطقة صور ومنها القائمقام».

لكن الاقتراح الذي وجد فيه البعض الحل الجذري المنتظر لمعاناة التجمع الممتد على أقل من كيلومتر واحد عند المدخل الشمالي لصور، وجده آخرون مشروعاً جديداً للتهجير قد يتقاطع مع ما حدث في مخيم نهر البارد لناحية المماطلة في حسم عملية إعادة الإعمار وعودة الناس إلى بيوتهم، في إشارة إلى أن التجمع أنشئ عام 1951 على الأملاك العامة.

مع ذلك، يقف علي ماضي على أنقاض منزله «الصريع» أمام الأمواج المتلاطمة. الرجل الذي تشرد مع أولاده وأسرة ابنه ينتظر الحل، وإن استلزم إيواؤه إبعاده عن موطنه المزمن ونقله إلى مكان آخر.

وعلى غرار زحمة المساعدات والوعود التي اغدقت على 1200 لاجئ فلسطيني يقطنون في 220 منزلاً في التجمع، عرض اقتراح آخر في جزء من الحل، تمثل بتعهد دولة قطر تمويل إعادة ترميم البيوت الستة التي تضررت أخيراً. اقتراح سبب جدلاً بين متضرري العواصف السابقة الذين طالبوا بدعمهم لتشابه الضرر. علماً بأن البعض كانوا قد رمموا بيوتهم على نفقتهم الخاصة بعد يأسهم من صدق الوعود التي وعدوا بها من الكثيرين، ومنهم السفارة الفلسطينية التي أعلنت على لسان السفير عبد الله عبد الله خلال تفقده المخيم المنكوب قبل شهرين، أن الرئيس محمود عباس سيصرف مبلغاً من المال لتدعيم منازل التجمع وصيانتها. إلا أن المبلغ لم يصل منه أكثر من 15 ألف دولار، توزعت بين مواد غذائية ومساعدات مادية على المتضررين.

مطبات ضوئية

اليأس ليس بعيداً عن أهالي تجمّع جل البحر عند مدخل صور تجاه الحلول الجديدة؛ فقد استحصلت منظمة أرض البشر الإيطالية على إذن بتركيب مطبات ضوئية على الطريق المحاذي لتخفف من سرعة السيارات المارة وتسهم في حماية سكان التجمع من حوادث الصدم المتكررة، حيث لا يفصل رصيف أو حاجز بينهم وبين الطريق. المطبات وإشارات التقيد بالسرعة المتوسطة، سرعان ما أزيلت بعد اعتراض بلدية العباسية التي يقع التجمع في نطاقها الجغرافي. لذلك، عاد الخطر ليصبح خطرين: من أمام التجمع الطريق، ومن ورائه البحر.

بعدسة أهلها

وفي غزة، داعبت الوجوه نسمة حرية آتية من صوب رفح. فبعد فتح المعبر الشهير من جهة مصر المحررة من نظامها، يستطيع القطاع الصابر أن يتنفس قليلاً بانتظار أن يجد اتجاه الريح التي ستحمله إلى حيث تهفو قلوب العالم العربي: الحرية. بانتظار ذلك، وكما تقول فيروز «عم يلعبوا الولاد عم يلعبوا»، اليوم بأرجوحة مصنوعة من دولاب مطاط، وغداً في شوارع فلسطين المحررة. الصورة للزميل شعيب أبو جهل

هذا العفريت هاجسي أبحث عنه في كل مكان في القناني الفارغة والملأى، في أهم الصحف، في أبرز القنوات، على الفايسبوك، في جمعية عفاريت بلا حدود. وصلت إلى رقم هاتفه، لكنه خارج الخدمة أو أنه لا يرد على أرقام غريبة ربما.
لكنني في حقيقة الأمر أعترف بخطئي؛ فقد طمعت بهذا العفريت المسكين. فلو أنني حددت سؤالاً أو اثنين لحصلت على الإجابة، لكني أعد عفريتي «الويكيليكسي» بأنه إن ظهر لي مرة أخرى فلن أسأل إلا سؤالاً واحداً: هل نحن حقاً محكومون بالأمل، وما يحدث اليوم لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ؟ كما قال سعد الله ونوس، وأتمنى أن تجيبني بنعم حتى أعيد تخطيط هذه الكلمة مرة أخرى على الحائط بجانب صورته، لأنني أعرف أنني وأبو ربيع ومعنا كل «شرّيبة المخيم» لن نستطيع شراء تلك الطائرة، وذاكرتي لم تعد تتسع لكل تلك الذكريات ولا تتحملها.

رسائل صبابة وحنظلة

ليس إلا جنديّاً إسرائيليّاً

«يا شباب قال بدكم تشلحوا الكوفيات... الجنود مش راضيين يفوتوكم إلا إذا شلتوها عن اكتافكم» تصرخ الخليلية الثلاثينية بعصبية، في مجموعة اللاجئين الآتية من لبنان بدعوة من وزارة الثقافة في السلطة الفلسطينية، التي وجدت نفسها، بفضل كذبة بيضاء، متمتعة بحقوق «في آي بي» تتيح لها دخول أراضي 1948. تمطرها الردود دفعة واحدة وعفواً «فشروا»، «لأ. مش على ذوق أبوهم»، «مش رح نشلحها»، «صرنا واصلين ما تخلونا نرجع»، «يا شباب خلونا نشيل هالفكرة إنو نفوت لجوّا، نحنا مش كل يوم بفلسطين، ما تعملوا قبضايات هلق»، «شو هالظلم هاد». سرعان ما تحوّل الاختلاف على الكوفية، بقدرة قادر، الى هتاف موحّد بالحرية لفلسطين وبالزوال للاحتلال.
استِنفرت هذه الجلبة جنود الاحتلال، واستنفر معهم منظّمو الجولة لكوننا بتنا محتجزين بين معبر حديدي آلي وآخر اعتمد نقطة تفتيش تفصل بينهما أمتار قليلة. «هدول اليهود أوسخ اشي بالخليل، وما كان اشي رح يمنعهم يطخّوا عليكم أو يرموا قنبلة غاز»، يبرّر المنظمون وهم يستعجلون أفراد المجموعة لتجاوز المعبر الحديدي الآلي الذي يُبعدنا بضع خطوات عن الحرم الإبراهيمي.
زميلتي وأنا قررنا المحاولة مرة ثانية بعد أيام، بمساعدة من نجيب، الشاب الخليلي العشريني. أردنا تسجيل موقف حقيقي بالدخول فعلياً الى الحرم هذه المرة. أزقة بيوت البلدة القديمة المؤدية إلى الحرم دليل حي على معاناة الأهالي هناك، فالأعلام الإسرائيلية تطلّ من كل حدب وصوب. هنا منزل مؤلف من عدة طبقات استولى عليها أو على بعضها مستوطنون يهود بالقوّة. وهناك آثار لحريق أضرمه بعض المتطرفين اليهود في أحد البيوت. وهنا وهناك شباك كشباك صيد السمك معلّقة في السماء تصطاد ما يحاول هؤلاء رميه على رؤوس الخليليين.
نقترب من الحرم الإبراهيمي أخيراً، نجتاز الحاجز الآلي لنصل عند نقطة التفتيش. تعبر فداء بسهولة فحجابها كان شفيعها. يأتي دوري، يسألني الجندي بعربيته المكسّرة عن ديني! أدعي عدم فهم سؤاله. يكرره بالإنكليزية إن كنت مسيحية أم مسلمة. أجيبه محاولة التذاكي: «وهل يمثّل ذلك فرقاً؟ ماذا إن كنت ملحدة مثلاً؟!». يردّ بلؤم مشيراً بيده «نعم... وقفي على جنب». أشعر بأنني في ورطة «تفلسفتي يا ست يعني؟ شفتي حدا ملحد بدو يفوت على جامع!! شو كنتِ عم تفكري؟»، أبرّر لنفسي «بس كنت بدي أفرجيه إنو ما في فرق بين فلسطيني مسيحي وفلسطيني مسلم». أعنّفها «طب اسكتي هلّق».
أنتظر ليأتي نجيب الذي كان يخضع لتفتيش «يدوي» أيضاً، أفكر كيف بحق السماء يحاول هذا الجندي الغبيّ أن يدّعي مراعاة مشاعر المسلمين!! وأنا أشاهد من بعيد قطعاناً من اليهود المستوطنين والسياح يسرحون ويمرحون في النصف الآخر الذي احتلّوه من الجامع!
أراه يتحدث مع رجل يرتدي ثياباً مدنيّة. أتذكّر هذا الرجل جيداً، هو الأربعيني ذاته الذي كان يستعلم منّا، ويترجم للجنود ما كنا نقوله في زيارتنا الأولى. يعلو صوته فجأة مربتاً كتف الجندي «فوّتهم يا زلمه بدهم يصلّوا». في الداخل، يتبع خطواتنا جنديان وكاميرات مراقبة منتشرة في أرجاء المكان الذي يكاد يكون مهجوراً إلّا من عدد قليل من الخليليين ـ ربما لأن وقت الصلاة لم يحن بعد ـ أسأل أحدهم وفي ذهني صورة طابور اليهود في القسم المحتل «على طول هيك ما في حدا هون؟». ينفي، مستدركاً «شايفة هناك صارت مجزرة الحرم الإبراهيمي، ومن وقتها الناس صاروا يخافوا ييجوا يصلّوا».
ننهي حديثنا وأتابع السير متعمّدة البقاء تحت ناظري أحد الجنديين ليبقى هو تحت ناظري، علّني أستكشف شيئاً يخبرني ممّا هؤلاء البشر مصنوعون. يقترب مني بضع خطوات كمن يحاول البوح بسر ما، ويسأل بعربية متينة «من وين جايين؟»، أجيبه «والله بالأصل من عكا بس لاجئين في لبنان»، يعلّق «أنا حابب أزور لبنان»، «وأنا حابة أرجع على عكا»، أردّ. يقترب أكثر «على فكرة أنا من عكا»، أعلّق «والله!! كيف؟». يقاطعنا صوت استدعائه عبر جهازه اللاسلكي، ثمّ يجيب بجدية «أنا أصلي من عكا كمان وبعدني عايش هناك». أصمت مصدومة، أقترب منه حتى كاد حضن عكاوي أصيل يفصلنا، أتفقّد ملامحه وتعابيره عن قرب، أبحث فيها عن شيء يصدّق ما قاله بأنه فلسطيني وعكاوي الأصل مثلي! عن أي شيء يكذّب بذلته العسكرية المرصّعة بالعلَم الإسرائيلي أو سلاحه المدلّى عن كتفه أو استجابته للكلمات العبرية الصادرة عن جهازه مرّة أخرى.
يُفتح الساتر البلاستيكي، العازل شطري الحرم، له... يعبره ليتمّ مهمته بحماية قطعان المستوطنين والسياح اليهود. حينها تأكدت فقط أنه لا يمكن أن يكون فلسطينياً وأنه ليس إلّا جندياً إسرائيلياً آخر.

برج البراجنة - ناديا خير